(تشي)

فتح (أحمد) الباب بيده اليسرى ودفعه للداخل.. مد يده اليُمنى في ذات اللحظة ليمسك يد (ندى) ليساعدها.. دخلت الجميلة تجر أقدامها على الأرض وتتحرك بهدوء.. وتستند بجانبها تارة على (أحمد) وتارة على الجدران.. أخذا أكثر من نصف ساعة في طريقهما من الباب إلى غرفة المعيشة، رغم أنَّ المسافة قصيرة ولا تأخذ في المعتاد أكثر من دقيقتين أو ثلاث، ولكن الإرهاق والإنهاك الذي بدا واضحًا على (ندى) أطال المسافة والوقت.

بمجرد أنْ لامس ظهرها الأريكة، صرخت من الألم.. كان شديدًا كمن يزرع فيها أسياخًا من نار.. أُنْهِكَتْ الجميلة ذات الشعر الأصفر والعينين الخضراوين.. فرحلة المشفى كانت طويلة، دخلته تشتكي من آلام في البطن كانت تهاجمها على فترات، فاتضح للأطباء أنَّ هناك ورمًا في الأمعاء، ولا بد له من الاستئصال.. خضعت لجلسات علاج بالإشعاع حتى يسيطروا على الوَضْع، ثم خضعت للجراحة، وأزالته، واستمرت في المشفى قرابة الشهر في نقاهة ومتابعة، حتى جاءهم الخبر الصادم منذ

يومين بظهور ورم آخر في ذات المكان، بَيْد أنَّ الأطباء استبشروا خيرًا، فهو صغير، وبالإمكان السيطرة عليه بالعلاج الإشعاعي والكيماوي.

نظرت (ندى) إلى أحمد بنظرة مختلطة.. فهي تدرك أنه مَن أخرجها من المشفى رغم رفض الأطباء وإصرارهم لها على البقاء تحت الملاحظة، فحالتها غير مستقرة، ولا بد لها من أخذ الجلسات، ارتبك (أحمد) لوهلة لما خاطبته عيناها:

ـ «أهديتك القلب ونذوره، وأهديتني السحر وآفاقه».

جلس بجوارها، وقال بنبرة حنونة:

ـ حمد الله على السلامة حبيبتي.. المنزل أضاء بنورِكِ.

ابتسمت له، وقالت بصوت يكاد لا يخرُج :

ـ حبيبي.

احتضن بيده يدها وهو يربت عليها برفق.. ثم اقترب بشفتيه منها وطبع قبلة على يدها.. باحت لها بدفء العشق وغذَّت منها الروح..

قالت له والدموع تخرج من عينيها منتشية بجنون:

ـ يكفيني أنك بجانبي..

نظر إليها في دهشة عاشق ولهان:

ـ وهل لي مكان آخر لأكون فيه؟! فأنتِ وهج القلب وتلاوته كل صباح.

ابتسمت في خجل من جمال التعبير.. لطالما أسَرَ منها القلب والروح منذ كانا جارين صغيرين.. استجمع (أحمد) الكلمات على لسانه ثم قال:

ـ بإذن الله ـ تعالى ـ سنتخطى هذه المرحلة سريعًا.. وستصبح ذكرى يا حبيبتي.

أومأت برأسها في هدوء، فقبَّل يدها مرة أخرى، وقال لها سريعًا وهو يغالب البكاء:

ـ هل أصنع لكِ كوب شاي بالنعناع؟

أومأت له مجددًا، ولكن بالرفض.. فقال لها وهو يبتسم:

ـ بل سنتناول الشاي معًا، وأحدِّثك في ما أردت بالأمس..

تذكَّرت لحظتها، ليلة البارحة في المشفى لمّا كان يجمع بقية الأغراض ويجهز الحقيبة.. أخبرها برغبته في مناقشة أمر ما.. نظرت له بعين مكسورة يملؤها الإرهاق والتعب، ثم قالت:

ـ هلا أجَّلناه للغد..

اقترب منها، وطبع على خدها قبلة رقيقة.. تسارع لها النبض في صدرها بشدة، ثم قال:

ـ لا حبيبتي سأعود سريعًا لنستكمل الحوار.

ثم مضى.. مضى، وهو يعلم أنه لا يملك رفاهية الوقت، فقد وافق له الأطباء على ثمانية وأربعين ساعة فقط، ومهمته الأساسية إقناعها بالعودة للعلاج الإشعاعي من جديد، عامل الوقت يصارعهما.. مسكين (أحمد) يعتصر قلبه الألم على ما أصاب حبيبته في فترة وجيزة، لم يكن يتخيل في أسوء الأحلام أنْ يراها بهذا التعب والإنهاك.. نوبات الغثيان والقيء والألم الشديد كابوس هاجم حياتهما، وأصبح واقعًا عليهما التعامل معه.. واقعًا مرًا كالحنظل، لا خيار غيره للأسف تصاحبه باقي الأعراض.. يعلم مدى تأثير ذلك عليها وعلى إحساسها المختلط.. بين صدمة وذهول ووجع.. تنهَّد وهو يتذكر كل ذلك، وأسرع الخُطى إلى المطبخ ليحضر الشاي، ويبدأ معها مهمته الشاقة.

أدارت (ندى) عينيها في الغرفة.. كل شيء مرتب ومنظم كما تركته؛ (أحمد) يحب الالتزام والنظام والترتيب، ويهتم بأدق التفاصيل.. أدارت رأسها يمينًا فشاهدت حوض السمك.. يالله كم تحبه كثيرًا.. أهداه لها (أحمد) كأول هدية بينهما بعد الزواج.. أراد أنْ يُدخل في قلبها السعادة والمتعة.. يعلم كم تعشق التأمل وتحب البحر والماء.. شعرت بجفاف حلقها لوهلة لكنها سرعان ما تجاهلته، وابتسمت وهي تشاهد جمال الأسماك وصفو الماء.. هذه البيئة تنقلها لمستوى آخر من الهدوء.. لديها أربع سمكات (ريتي، ونيون، وتشي، وأخيرًا مولي) اثنتين من نوع «الكوي»، واثنتين من نوع «الفانتيل».. «الفانتيل» إحداهما برتقالية اللون، والأخرى مُرقطة بين الأبيض والبرتقالي، أما «الكوي» فإحداهما بيضاء ببقع سوداء ونقطة برتقالية واحدة بالقرب من العين، والأخرى برتقالية ببقع سوادء.. مجموعة متناسقة وجميلة.. «الفانتيل» أسماك تتميز بزعنفة مقسمة إلى جزئين، أما «الكوي» فذيلها طويل.. كلا النوعين من فصيلة «الجولد فيش» وهي أسماك اجتماعية.. ألوانها عذبة خلابة.. حركتهم وانتشارهم في حوض الماء أشبه بلوحة، جميلة، رائعة، ومريحة للعينين.. ابتسمت (ندى) وهي تحاول أنْ تطال الحوض بيدها لتلاعب الصغيرات..

ـ ما هذا؟ إحداهن ليست في الحوض.. أيهن؟ أين هي؟

ركزت نظرها لتتفقدهم فاكتشفتها إنها (تشي).

تحركت يد (ندى) في الحوض، فلم تجدها، لا خَلف مُنقِّي الماء ـ ولا السخَّان.. أين ذهبتْ؟ وماذا أصابها؟

نادت على (أحمد) بصوت يكاد لا يخرج:

ـ (أحمد) أين (تشي)؟

أدارت عينيها في الغرفة، فوجدت حوضًا صغيرًا موضوعًا على طاولة التلفاز.. وفيه الصغيرة.. تنهدت، وشكرت الله فقد شرد بها ظنها بعيدًا..

جاءها صوت (أحمد) من خلفها في لهفة:

ـ حبيبتي، ناديت عليّ؟

رد بصوتٍ قلِق:

ـ أجل.. ماذا حلَّ بالصغيرة (تشي)؟ ولماذا هي هناك في حوض صغير؟

أجابها:

ـ منذ فترة بدأت تتصرف وتتحرك بغرابة.. تنعزل عن بقية الأسماك، وتتخذ من ركن أو زاوية لها مكانًا دائمًا لا تغادره.

ذهب (أحمد) وأحضر الحوض الصغير، وأعطاه لندى، التي نظرت إلى السمكة الصغيرة بشيء من الحنين، ورددت اسمها:

ـ (تشي) ماذا حل بكِ، يا صغيرتي؟

أردف (أحمد):

ـ ذَهَبْتُ إلى صاحب المحل الذي اشتريت الحوض والأسماك منه، وعَرَضْتُهَا عليه، فأخبرني أنها مريضة، وزعانفها المتآكلة دليل على مهاجمة بقية الأسماك لها بسبب مرضها، وإذا استمرت هكذا فستموت في غضون أيام قليلة.. ولكي نمنع ذلك، طلب منّي فصلها في حوض آخر وأعطاني دواء أقطر لها منه كل ثلاثة أيام في الماء خمس قطرات.

نظرت (ندى) لها بشفقة، فوجدتها تقف في جانب واحد متآكلة الزعانف والذيل.. ألوانها باهتة، تفتح فمها كثيرًا، وكأنها تصارع لتظل تسبَح على ارتفاع.. أشبه بمن خرج للتو من حرب جسور

سألت (ندى):

ـ منذ متى وهي على هذا الحال؟

أجابها (أحمد):

ـ بعد دخولك المشفى بيوم أو يومين.

تملكتها الدهشة، وقالت:

ـ هذا منذ أكثر من شهر.

أجابها (أحمد):

ـ أجل.

ساد الصمت الغرفة.. (ندى) باستغرابها ودهشتها، و(أحمد) بارتقابه لردة فعلها، وما كسره إلّا أنْ قال هربًا:

ـ سأذهب لأكمِل إعداد الشاي، حبيبتي.

لم ينتظر منها إجابة.. أما هي، فقد كانت كمن انعزل عن العالم، وهي تتطلع للصغيرة في حوضها تصارع، تَميل على جانبها الأيسر كثيرًا، راقبتها فوجدتها كمن ينتفض بين آنٍ وحينٍ.

ـ أي صراع هذا يا صغيرتي تحيين؟ ترى بم تشعرين؟ وبأي آلام تحترقين؟

تأملت حالها قليلًا، ثم سرحت.. كيف لسمكة مثلها أنْ تقاوم بكل هذا الإصرار.. المرض يَنهش فيها حتى أنَّ رفيقاتها أدركن ذلك وفي

سلوك عدائي صريح يصعب تفسيره.. أخَذُوا فِي إيذائِها، وهاجَمُوها لأنَّها باتتْ ضعيفةً، مُنهَكةً ، ظَنُّوها بِلا أملٍ، ؛حتَّى اقْتَطَعْنَ مِنْ ذَيْلِها أمّا هي فكانت تستحق الحياة، لذلك ظلت تكابر، وتعافر، وتقاوم المرض من جهة، وشراسة مَن حولها مِن جهة أخرى.

- كم أنتِ قوية يا صغيرة حتى تصمدي كل هذه المدة.. رغم أنَّ عدتك كانت أيامًا.. هذه قوة لا يُستهان بها يا (تشي).. إنها إرادة الحياة.

ثم لمعت في ذهنها فكرة.. أليست هي مثل (تشي)؟ ضعيفة، هزيلة، مريضة، قذفتها أمواج القَدر في طريق المرض؟ لكنها تختلف عنها بوجود الكثيرين حولها.. معها وليس ضدها.. الأهل والأحباب والصديقات.. ومعها (أحمد) سند، وظهر، وعضد تعتمد عليه، هي لا تواجه المرض بمفردها مثلها، بل وجودهم بجوارها أقوى دواء.

كم هي سهلة ويسيرة الحياة في وجود قلب صادق بجوارك.. قلب محب يهوى كل شيء منك.. حتى الضعف.. قلب شغوف ليس بخيال.. شخص يجدد فيك الآمال.. يصالحك على مهاترات الزمن، ويحميك من تقلبات البشر.

أدركت (ندى) أنَّ معركتها، وإنْ كانت شاقة وصعبة، لكنها رابحة برغبتها وإصرارها على الحياة.. أجل، رغبة الحياة فيها كما تفعل الأشجار.. قد تمرض وتتساقط منها الأوراقُ، لكنها تبقى صامدة، قوية، لا تتزعزع أبدًا، مهما كانت التقلبات من حولها والمنغصات.. ما نجاحنا في الحياة إلّا تخطٍّي العقبات.

دخل عليها (أحمد) وفي يده صينية، عليها كوبان الشاي الساخن قائلًا لها:

ـ ها هو الشاي، لأجمل البشر.

قالت له:

ـ زجاج أم شجر؟

ثبت مكانه فهو لم يفهم السؤال، فأعادته مرة أخرى على مسامعه:

ـ أتعتقدني زجاجًا أم شجرًا؟

ابتسم لمّا أدرك المعنى، واقترب منها قائلًا:

ـ أنتِ لم تَكوُني أبدًا إلّا شجرة حب وعطاء.. أعلم أنَّ الألم شعور مرير، والحياة في ظله ثقيلة.. باردة ومقيتة، لكنكِ قوية جدًا، وما عهدتك إلّا كذلك منذ أحببتك.

قالت له:

ـ أتراهن على ذلك؟

أجابها فورًا:

ـ طبعًا، أنتِ كذلك، ولن نستسلم بمشيئة الله لهذا الشبح الأعمى.

نظرت إلى الحوض الصغير، وأشارت بعينيها إلى (تشي)، وقالت:

ـ مثل (تشي)؟!

أجابها:

ـ وأكثر منها.

تساقطت على خدها قطرات الدموع تجري سريعًا، تبحث عن مسارٍ لها، فنادى عليها:

- حبيبتي.

أدارت وجهها له، ثم ابتسمت، وهي تبكي بصمت:

- لن أستسلم كما تفعل (تشي)، وسأبدأ غدًا أولى الجلسات يا (أحمد).

احتضنها بقوة، من فرحته بقرارها، وقال في سعادة:

- سنهزمه حبيبتي، سنجعله يملّ، ويختار الرحيل بلا عودة.

أومأت برأسها موافقة.

ربت على رأسها بحبٍ، ونظر بامْتِنَانٍ إلى حيث (تشي) في حوضها الصغير، تصارع للبقاء على ذات الارتفاع.